رغد المعيشة وضنكها

يعلمنا القرآن الكريم أن رغد العيش وضنكه، إنما يتبع علاقة المجتمع بربه، ومدى التزامه بالمنهج الذي أعطى له على يد الرسل الكرام من أول آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ يقول الله تعالى؛ ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[النحل: ١١٢].

ولقد كان الدستور الذي وضعه الله لآدم عندما أهبطه إلى الأرض يتمثل في أن من يتبع الهدى الذي يأتيه من الله فلا يضل ولا يشقى، ومن يعرض عن هذا الهدى فله المعيشة الضنك في الدنيا، وله العقوبة القاسية في الآخرة.

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾[طه:١٢٣-١٢٧].

هذه هي الوصية الأساسية لآدم عليه السلام وبنيه من بعده عندما أهبطه الله إلى الأرض ليقوم بدوره كخليفة، كانت الوصية في شكل سنة إلهية لا تتبدل ولا تتحول وتنطبق لا محالة إذا تحققت مقدماتها، من يتبع الهدى الذي يأتيه من الله على يد أي من رسله، فلن يضل ولن يشقى، ومن يعرض عن هذا الهدى فإن له ضنك المعيشة في الدنيا، وعدم الاهتداء والعمى في الآخرة، ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾[الإسراء: ٧٧]، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[الأحزاب: ٦٢].

على أساس من هذه السنة ستكون معاملة الله تعالى لذرية آدم عليه السلام، في أجيالها المتعاقبة، من يسر على منهج الله تعالى يقوده إلى السعادة في الدنيا والآخرة، يعيش في

الدنيا حياة طيبة، يظللها العدل ويغلفها التكافل والتراحم، ويسودها الإيثار والمودة، ويفوز الناس في ظلها بخيرى الدنيا والآخرة، ويحوزون عاجل الخير وآجله. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[الأعراف: ٩٦]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]

هذه هى سنة الله في جانبها الأول، جانب إتباع المنهج الإلهي، والسير عليه، وتعظيم الله تعالى وتوقيره، واللجوء إليه في السراء والضراء، والعيش في كنفه، والتمسك بهديه.

أما الإعراض عن الهدى - عندما يأتي البشر من ربهم - فإن عواقبه وخيمة، إنها المعيشة الضنك في هذه الدنيا، المعيشة التي يظللها الخوف ويكتنفها الشقاء من كل جانب، المعيشة التي توغل في الضلال على شتى المستويات، المستوى الاقتصادي حيث ينخر الربا في اقتصادها، والمستوى الاجتماعي حيث ينخر التحلل والتفسخ في جذورها وكيانها، والمستوى الثقافي حيث ينخر الكذب والنفاق والرياء والتضليل في مقوماتها، فيحيل الحياة إلى جحيم لا تصلح به حياة ولا تستقيم معه أحوال، والمستوى التشريعي حيث ينخر الهوى والظلم في مؤسساتها، وتغيب العدالة عن شئونها، فيتظالم الناس، ويأكل بعضهم حقوق البعض، وعلى المستوى السياسي، حيث تغتصب السلطة وتستلب الحقوق، ويوسد الأمر إلى غير أهله، فيقرب الفاجر ويمكن، وينفى التقى ويبعد. وعلى المستوى الأخلاقي، حيث تنقلب المعايير الخلقية، ويهزأ بالقيم فيؤمن الخائن، ويخون الأمين، وعلى كل المستويات يظهر الفساد، في البر والبحر، في الأنفس والمجتمع، في النظم والتشريعات، ذلك أن الناس ضلوا عن المنهج، وتنكبوا الطريق القويم وتخلوا عن الهدى الذي جاءهم من الله تعالى، فحقت

عليهم السنة الإلهية التي قررها الله تعالى في وحيه إلى آدم عليه السلام ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾[طه:١٢٤] فالإعراض عن هدي الله تعالى في الحكم والاقتصاد والاجتماع والمعاملات وسائر المجالات، هو الذي يقود الأمة إلى التبعية والذل والهوان سياسياً، وإلى الضنك وسوء الأحوال اجتماعياً، وإلى ضعف الإنتاج وارتفاع الأسعار وانخفاض مستوى المعيشة اقتصادياً، وإلى التفسخ والتحلل والتميع والغش والخداع والتطفيف وأكل أموال الغير بالباطل، وبخس الناس أشياءهم أخلاقياً.

تلك سنة الله تعالى علمها آدم وبنيه من بعده، تنطبق عليه وعليهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

هذا، وإن الواقع الذي يحيط بنا ـ وقد أعرضنا عن هدي الله تعالى، في الحكم والاقتصاد والتشريع والأخلاق وغيرها ـ ليشهد بانطباق السنة على الأمة العربية اليوم، تلك الأمة التي عزت من قبل، وعاشت حياة طيبة عندما أقامت الصلاة وآتت الزكاة، وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر، ثم فرطت في الهدي الذي أعطى لها من ربها فحقت عليها السنة التي لا تحابى ولا تتحول ولا تتبدل، وتحولت أحوالها من النقيض إلى النقيض عما كانت عليه من قبل. ولقد صدق سيدنا عمر رضي الله عنه عندما قال مستلهماً هذه السنة الإلهية: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فإذا ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله، ولن يرفع عنا ما نحن فيه إلا إذا عدنا إلى الهدى الذي جاءنا من ربنا على يدي آدم عليه السلام من قبل ومحمد صلى الله عليه وسلم أخيراً».

إن الشقاء الذي نفته الآية الكريمة عمن يتبع هدى الله، سيصيب من يعرض عن هذا الهدى، فهو ثمرة الإعراض لا محالة يجنيها المعرض عن ذكر ربه، ولو كان غارقاً في متاع الدنيا، فما يضل الإنسان عن هدى الله تعالى إلا ويتخبط في القلق

والحـــــيرة ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥]. ولن تستقر نفس العبد وتطمئن إلا في رحاب الله تعالى، وإتباع هداه.

إن بناء الإنسان في مجتمعاتنا المخربة اليوم، والإصلاح والتحديث الذي تلوكه الألسنة اليوم، يجب أن يقوم على أسس تكفل العودة إلى الله تعالى، وإتباع هداه. إن مجتمعاتنا إذا انقطعت عن سند القوة الكبرى، قوة الله تعالى، ستأكلها القوى المسيطرة على الأرض اليوم، من دول كبرى، وشركات كبرى، وأحلاف كبرى، تريد فرض القيم المعكوسة، والمصطلحات المغلوطة، والأوضاع المقلوبة، ونحن لا نملك لشيء من هذا رداً، إثر تفريطنا في جنب الله، وفقدنا له كسند.

إننا عندما نتصل بالقوة الإلهية، ونتبع هدى الله سنقف لهذه الغيلان الكبرى من دول وشركات وأحلاف، أو على الأقل سنكون عنصراً فاعلاً في الصراع معها، ولا نكون مسلوبي الإرادة أمام مخططاتها، التي ترمى إلى تفتيتنا، وسلب قيمنا، تمهيداً للقضاء علينا. إن هذه القوى ما سلطت علينا إلا كنوع من العقوبة جراء إعراضنا عن هدى الله تعالى، وسترفع العقوبة إذا عدنا إلى حظيرة الله تعالى، وجنابه الذي لا يرام.

فهل من مستجيب؟!!